جامعة كمبريدج
نشأتها وتطورها إبان العصور الوسطى المتأخرة
(١٤٩٦-١٢٠٩م)

طارق شمس الدين زاكر
مدرس مساعد بقسم التاريخ
كلية التربية - جامعة عين شمس
القاهرة - جمهورية مصر العربية

بيانات الأطروحة

الباحث: طارق شمس الدين زاكر أبو المجد
إشراف: أ.د. عبد العزيز محمد رمضان
إشراف: د. أمل يوسف عبد الله

أطروحة ماجستير تخصص التاريخ الوسيط
قسم التاريخ – كلية التربية
القاهرة – جامعة عين شمس ٢٠١٩م
٣٦٧ (صفحة)

كلمات مفتاحية: الجامعات الأوروبية؛ كمبريدج؛ حضارة العصور الوسطى؛ التعليم الجامعي؛ تاريخ التعليم؛ التاريخ الثقافي والفكري

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186414

مُقدِّمَة

يُعَدّ تاريخ التعليم فرعًا من فروع علم التاريخ، فرعًا ذا طبيعة خاصة ميزته في موضوعاته ومصادره عن باقي الفروع، فعلى الرغم من اعتماد هذا الفرع على الوثائق والمصادر مثل فروع التاريخ الأخرى، إلا أنه تفرد بكمية متنوعة من المصادر مثل اللوائح والقوانين والتشريعات الجامعية، ومحاضرات الطلاب ورسائلهم، والكتب والنصوص، والامتيازات، والرسائل الملكية، والبراءات البابوية، وقرارات رؤساء المجالس البلدية، مما جعله فرعًا مميزًا في موضوعاته ومصادره، ومن أهم الموضوعات التي عالجها هذا الفرع هو التعليم الجامعي ونشأته في العصور الوسطى.

لعبت الجامعات الأوروبية دورًا بارزًا وملموسًا في حياة العصور الوسطى، وتعدى هذا الدور العصور الوسطى ليمتد عبر قرون عديدة حتى الآن، فالجامعات المعاصرة بصروحها الشامخة وقبابها العالية هي وريثة العصور الوسطى بمفاهيمها ومعتقداتها وتوجهاتها، ولم تنشأ الجامعات بين ليلة وضحاها وإنما هي نتيجة تراكمات عدة من الفكر والثقافة، تمخضت وأفرزت لنا هذه المؤسسات التعليمية، التي عدها العلماء والمؤرخون أفضل ما ورثته العصور الحديثة من العصر الوسيط.

ومن هذا المنطلق، جاءت الرؤية لتناول هذه الدراسة والتي جاءت بعنوان "**جامعة كمبريدج: نشأتها وتطورها إبان العصور الوسطى المتأخرة (١٤٩٦-١٢٠٩م)**". أما عن **الحدود الزمنية للدراسة فتبدأ** من عام ١٢٠٩م وهو العام الذي بدأت فيه جامعة كمبريدج بإلقاء محاضراتها للطلاب الذين هجروا جامعة أكسفورد بعد أحداث هذا العام وسعوا إلى مكان آخر لتلقي تعليمهم، ورغم اختلاف المؤرخين حول هذا العام وهل سبقت الدراسة بالجامعة هذا التاريخ، فإن الإجماع

جاء ليؤكد أن البداية الحقيقية للجامعة ترجع لهذا العام. **وتنتهي الدراسة** بعام ١٤٩٦م وهي السنة التي شهدت تأسيس آخر كليات جامعة كمبريدج في حقبة العصور الوسطى – مع استمرار إنشاء الكليات في العصور اللاحقة – وبانتهاء هذا القرن حققت كمبريدج تفوقًا على جميع الأصعدة، فاكتملت شخصيتها واكتمل بناؤها وهيكلها الأكاديمي والوظيفي.

أهمية موضوع الدراسة

تأتي **أهمية الموضوع** من ناحية أنه لا توجد دراسة مستقلة بذاتها تتناول جامعة كمبريدج في العصور الوسطى وأثرها على الحياة الفكرية، والثقافية، والحضارية على المجتمع الإنجليزي بصفة خاصة، والمجتمع الأوروبي بصفة عامة، مما يجعل هذه الدراسة إضافة للمكتبة العربية؛ لأنها الأولى من نوعها، كما أن هذه الدراسة تنتمي لفرع التاريخ الفكري والثقافي باعتبارها تهتم بالتعليم والتدريس والمناهج الدراسية في حقبة العصور الوسطى، وتنتمي أيضًا لفرع تاريخ المؤسسات كونها مؤسسة أكاديمية لها دورها عبر العصور.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى إعادة النظر في وضع جامعة كمبريدج في العصور الوسطى، وتصحيح التصور الخاطئ والمغلوط عنها بأنها كانت أقل من مثيلتها أكسفورد، وأنها جامعة من "الدرجة الثالثة"، وهو الاعتقاد الذي ساد لسنوات؛ لذا جاءت هذه الدراسة لتثبت خطأ هذه الاعتقادات وتوضح مكانة كمبريدج في العصور الوسطى ودورها في المجتمع آنذاك، وتبرز الامتيازات التي حصلت عليها ولم تحصل عليها جامعة أخرى.

الدراسات السابقة

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة، فإن المكتبة العربية لم تحوِ أي دراسة عن جامعة كمبريدج، بينما تحوي ثلاث دراسات عن جامعة أكسفورد في إنجلترا، ودراسة عن جامعة باريس في فرنسا، وهم على النحو التالي:

- زينب عبد المجيد: "جامعة أكسفورد في العصور الوسطى"، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مج٣، ٢٠٠٣م.
- سهى إبراهيم محمد: جامعة أكسفورد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م.
- سناء مندور طرفاية: جامعة أكسفورد في إنجلترا في العصور الوسطى ١٢٠٠-١٣٥٠م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١١م.
- ياسر عبد المعبود: جامعة باريس ودورها في النهضة الفكرية بأوروبا في العصر الوسيط، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٣م.

أما الدراسات الأجنبية فلا يمكننا أن نغفل رسالة الدكتوراه للباحث "آلن كارب" *Alan Karp* والتي تحمل عنوان: *"The Academic Corporations of England in the Middle Ages: Oxford and Cambridge 1150-1509", Ph.D. thesis, Teachers College, Columbia University, 1977.* والتي تناول فيها مدارس أكسفورد وكمبريدج ودور النقابات الأكاديمية وأهميتها وتطورها في إنجلترا خلال العصور الوسطى.

محتويات الأطروحة

انقسمت الدراسة إلى ستة فصول يسبقها مقدمة، وعرض لأهم المصادر، ويعقبها خاتمة وملاحق، وقائمة بالمصادر والمراجع على النحو التالي:

تناول **الفصل الأول**، الذي جاء بعنوان: **"التعليم في كمبريدج قبل تأسيس الجامعة"** الموقع الجغرافي لمدينة كمبريدج وتأثيره على حركة النقل والتجارة في شرق إنجلترا آنذاك، بالإضافة إلى إلقاء الضوء على أوضاع التعليم في إنجلترا وأوروبا قبل نشأة الجامعات، وأشهر النهضات الأوروبية منذ القرن التاسع وحتى القرن العاشر الميلادي، كما تناول الفصل التعليم والمدارس النحوية في مدينة كمبريدج وكيف استطاعت هذه المدارس أن تمنح كمبريدج خلفية تعليمية أهلتها لتكون مقرًا لجامعة إنجليزية حملت لواء العلم والتعليم في إنجلترا منذ العصر الوسيط وحتى العصر الحديث. واختُتِمَ الفصل بنهضة القرن الثاني عشر التي مهدت الطريق لظهور الجامعات في أوروبا في العصور الوسطى.

جاء **الفصل الثاني** بعنوان: **"نشأة جامعة كمبريدج"**، ليوضح ملابسات نشأة الجامعة وعوامل قيامها، والقصص الخرافية التي ارتبطت بأصل الجامعة ومحاولة إرجاعها إلى عصور سحيقة ترجع لقبل الميلاد، ودحض هذه الخرافات، كما عرض الفصل لدور الدعم الملكي والبابوي في نشأة الجامعة، وكيف ساهم ملوك إنجلترا وباباوات الكنيسة في رفع شأن الجامعة وتدعيمها من خلال المواثيق والبراءات والامتيازات الممنوحة من كلا الجهتين، فضلًا عن دعم

أفراد المجتمع الإنجليزي كالنبلاء والأرستقراطيين والنساء المتبرعات.

أما **الفصل الثالث**، فقد جاء تحت عنوان: **"كليات جامعة كمبريدج"**، وتم إفراد الحديث فيه عن كليات الجامعة البالغ عددها اثنتي عشرة كلية وقاعة، تأسست جميعها خلال ما يقرب من مائتي عام، فجاءت القاعة الأولى بعنوان "البيت البطرسي"، التي تأسست عام ١٢٨٤م على يد أسقف إيلي، لتضع كمبريدج على أولى خطوات الطريق نحو النضج الفكري والاكتمال المؤسسي، ثم توالى إنشاء الكليات على مدار القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين لينهي القرن الخامس عشر حقبة العصر الوسيط بتأسيس "كلية المسيح" عام ١٤٩٦م على يد أسقف إيلي أيضًا. واختلفت دوافع مؤسسي الكليات وفقًا لأغراضهم من هذا الوقف إما بدافع ديني أو دنيوي، ولكنها في نهاية الأمر جاءت في صالح الجامعة.

أما **الفصل الرابع** وعنوانه: **"الهيكل الإداري والتنظيمي لجامعة كمبريدج"**، فقد تناول مجلس الجامعة وسلطة المستشار أو رئيس الجامعة في إدارة مؤسسته وصلاحياته الكنسية والقضائية التي اكتسبها بحكم المنصب، وعمل على زيادتها هي، وامتيازات الجامعة يومًا بعد يوم، مما جعله في صدام دائم مع السلطتين المدنية والكنسية. كما عرض الفصل اللوائح والقوانين المنظمة للحياة الجامعية وتطور هذه التشريعات لمواجهة سلوك الطلاب، خاصة مع توافد الطلاب إلى الجامعة من مناطق شتى واختلاف أعراقهم وأصولهم، وكذلك دور الأساتذة في الجامعة والكليات على المستويين التدريسي والإداري، بالإضافة إلى موظفي الجامعة وبعض المهن التي ارتبطت بالحياة الأكاديمية.

تناول **الفصل الخامس**، الذي جاء بعنوان: **"العملية التعليمة في جامعة كمبريدج"** صُلب الجامعة وشريانها الرئيسي والهدف المرجو من تأسيسها، وهو تعليم الطلاب، فعرض شروط الالتحاق بالجامعة ومبادئ التعليم الأولي ونظام الدراسة المتبع في الجامعة، والدراسات المتقدمة للخريجين، ونظام الامتحانات، والدرجات العلمية التي منحتها الجامعة، فضلًا عن أصول الطلاب وسلوكياتهم وحياتهم الجامعية والصعوبات التي واجهتهم أثناء الإقامة في الجامعة، والمناوشات التي حدثت بين الطلاب بعضهم البعض، والطلاب وأهالي المدينة، ثم انتقل الفصل للحديث عن الرهبان ودورهم في الجامعة ومساهمتهم في الأنشطة التعليمية والتبشيرية داخل الجامعة وخارجها.

وخُلص **الفصل السادس والأخير** بعنوان: **"جامعة كمبريدج والمجتمع الإنجليزي"** إلى إبراز الدور الذي لعبته الجامعة في المجتمع، والأثر الذي تركته في أعضائه بجميع فئاته، حيث لعبت دورًا نشطًا في دوائر المجتمع بأكمله وعلى جميع الأصعدة السياسية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، وبكل تأكيد الثقافية والفكرية. وتعدى أثرها المملكة الإنجليزية ليصل إلى أوروبا، وأصبحت قادرة في القرن الخامس عشر على جذب الطلاب الأوروبيين من مختلف الأنحاء، ودخلت في منافسة جديرة بالذكر مع جامعات أخرى مثل باريس وبولونيا وغيرهم، ويكفي القول إن جامعة كمبريدج حملت لواء العلم في إنجلترا مع نظيرتها أكسفورد منفردتين منذ العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر.

منهج البحث

اتبع الباحث منهج البحث التاريخي القائم على عرض الأحداث وتحليلها بهدف الوصول إلى الحقيقة وجوهر الموضوع، والتزم الباحث قدر الإمكان بالموضوعية والمنهجية في الدراسة، محاولًا تقديم عرض متسلسل ومترابط للأحداث، مستنتجًا أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

أهم نتائج الدراسة

يتضح من الدراسة أن جامعة كمبريدج امتلكت تاريخًا حافلًا وطويلًا، ولكنها لم تتعرض للبحث والدراسة الجادة، وقد تعرض هذا التاريخ للعديد من النقد والتجريح، وتحاملٍ وإغفال كبير من قبل كثير من الباحثين الأجانب، وجاء التركيز دائمًا على جامعة أكسفورد باعتبارها أولى الجامعات الإنجليزية، على الرغم من أن كمبريدج تأسست بعدها بفترة وجيزة لا تزيد عن أربعين عامًا، كما أنها شاركت أكسفورد في العديد من قضايا العصور الوسطى، وحملت معها لواء التعليم، فكانتا الجامعتين الوحيدتين في إنجلترا حتى القرن التاسع عشر.

أبطلت الدراسة ادعاءات أحد أبرز مؤرخي التعليم الجامعي في العصور الوسطى وهو العالم راشدال، الذي انتقصت كتاباته دائمًا من جامعة كمبريدج وصنفها على أنها جامعة من الدرجة الثالثة، فكيف لجامعة من الدرجة الثالثة أن تحصل على كل هذه الامتيازات وتطور نفسها وتنظم أمورها بمثل هذه الدقة، وأن تؤسس اثنتي عشرة كلية وقاعة في

العصر الوسيط فقط؟ كما أنها استطاعت أن تسير في تطورها وتأسيس الكليات حتى في أحلك الظروف، فأسست ثلاث كليات في ظل انتشار وباء الطاعون لمواجهة العجز في نقص رجال الدين.

أثبتت الدراسة أن مدينة كمبريدج لم تكن حديثة العهد بالتعليم، وإنما شهدت أرضها وجود المدارس النحوية قبل الجامعة بفترة كبيرة وكانت متفوقة في ذلك المجال، وقد أبطل وجود هذه المدارس الاعتقادات السائدة بأنه لم يكن هناك نشاط تعليمي في كمبريدج حتى هجرة طلاب أكسفورد إليها في أوائل القرن الثالث عشر، وإذا لم يكن هناك نشاط تعليمي قادر على استيعاب طلاب في مرحلة عالية من التعليم، فلماذا هاجر إليها الطلاب؟ خاصة أن المسافة بين المدينتين تبلغ حوالي ١٠٦ كم، أي أنها مسافة ليست بالقصيرة مقارنة بالوضع آنذاك.

أصبحت جامعة كمبريدج – بلا شك – جامعة من الدرجة الأولى بحلول القرن الرابع عشر، فامتلكت جميع المقومات الداعمة لذلك، حيث تم الاعتراف بها رسميًا بابويًا وملكيًا؛ وتطورت من الممارسات العرفية إلى القوانين والتشريعات؛ وامتلكت العديد من الكليات والقاعات؛ ودرَّست مختلف ألوان المعرفة المتعارف عليها وقتئذ، وامتلكت هيكلًا إداريًا وتنظيميًا قويًا؛ أضف إلى ذلك حصولها على امتيازات كثيرة للجامعة والطلاب والممتلكات، وسلطة مستقلة عن السلطات الأسقفية والمحلية.

تسببت الجامعات في تراجع دور البيوت الدينية، وكذلك مدارس الأديرة والكاتدرائيات، فلم تستوعب هذه المدارس ألوان المعرفة الجديدة التي زاحمت الغرب الأوروبي بعد نهضة القرن الثاني عشر نتيجة الاحتكاك بالشرق الإسلامي المتقدم، وانفتاح الأوروبيين على مختلف فروع المعرفة التي لم يكن يعرفون عنها سوى النذر اليسير، ولم تكن أوروبا قبل هذا القرن مهيأة لظهور نوع جديد من التعليم ترك أثره على مدار تسعة قرون، ومثَّل خريجوه رواد الإصلاح والتقدم في كل مجال.

أوضحت الدراسة أن الجامعة لم تكن وريثة أي عصر سوى العصر الوسيط، فعلى الرغم من تفوق اليونان والرومان في مجال التعليم، إلا أنهم لم يعرفوا نظام الجامعة بمفهومها الحديث، حتى الشرق الإسلامي المتحضر والتطور الكبير الذي أحرزه في مجال التعليم لم يعرف الجامعة أيضًا، ولم تتطور مدارسه مثل مدرسة بغداد إلى مستوى الجامعة.

دعَّم الملوك الإنجليز المتعاقبون الجامعة بالعديد من الامتيازات، وحرصوا على نصرتها هي وأعضائها بكل قوتهم، لأنهم أدركوا مدى قوة الجامعة من جهة، ودورها الاقتصادي الهام في إنعاش الحياة الاقتصادية والأسواق من جهة أخرى، لذا لم تُنتقص امتيازات جامعة كمبريدج أبدًا على مدار تاريخها، كما لعبت الهبات والقروض دورها الفاعل في حفاظ الجامعة على قوامها وتدعيم جوانب القوة فيها، والعمل على مواجهة جوانب السلب، كما كان للكنيسة دورها الفاعل أيضًا في تدعيم صلاحيات الجامعة وأعضائها وخاصة في وقت الصدام مع الأسقفية أو رجال الدين.

تعددت فئات متبرعي الجامعة والكليات المختلفة، فظهرت الملكية الإنجليزية بصورة قوية في هذا الشأن، أضف إلى ذلك رجال الدين من رؤساء الأساقفة والأساقفة والقساوسة، وبرزت النساء الأرستقراطيات كمتبرعات أيضًا من خلال إنشاء الكليات، ودعم صناديق القروض، وإعالة الطلاب الفقراء، وجاء في ذيل قائمة المتبرعين النبلاء الإنجليز بسبب عدم اهتمامهم بالتعليم بصورة كبيرة واعتمادهم على أصولهم النبيلة في الحصول على الوظائف أو الترقي ونيل الحظوة في المجتمع.

اختلفت دوافع المتبرعين للجامعة حسب نواياهم من هذا التبرع، فانحصرت أغلب دوافعهم في التقرب إلى الرب وتقديم نوع من العمل الخيْر عن طريق إعالة الطلاب الفقراء وتقديم العون والمساعدة لهم أثناء دراستهم، بالإضافة إلى إقامة الصلوات والقداديس للمتبرع أثناء حياته وعلى روحه بعد وفاته، أي أن دوافع المتبرعين لم تكن تعليمية أكاديمية على الإطلاق وإنما روحية.

اصطدمت الجامعة بالكنيسة ممثلة في الأسقفية، بسبب رغبة الأساقفة في فرض سيطرتهم على الجامعة وتأكيد الحق الأسقفي في اختيار مستشار الجامعة باعتباره تابعًا للأسقف، ويستمد سلطته منه، وهو الأمر الذي رفضه المستشار باعتباره رئيسًا منتخبًا من قبل هيئة أكاديمية تملك وحدها الحق في تعيينه أو عزله، واستمر هذ الصدام حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر عندما حصلت الجامعة على استقلالها الكنسي والأسقفي.

أثبتت الدراسة دور جامعة كمبريدج الحيوي في المجتمع وأحداثه، وأن العلاقة بينهما اتخذت شكل التأثير والتأثر، فعملت الجامعة على تدعيم موقف

الملك ريتشارد الثاني بشأن الانشقاق الكنسي وقدمت له النصح والمشورة، ولم تتوانَ عن مساعدته، وأُرسل مستشارها سفيرًا إلى روما لحل هذه المشكلة، كما شاركت في مجمع كونستانس لإنهاء هذا الشقاق، وخرجت كمبريدج من هذه المسألة بامتياز لم تحصل عليه أي جامعة أوروبية أخرى، حيث أخطرها مجلس الكرادلة باختيار البابا الجديد، وهو ما لم يتوفر لأي جامعة أخرى مهما كان شأنها.

حققت الجامعة ما يمكن أن نسميه العالمية؛ فأرسلت طلابها للدراسة في إحدى الجامعات في أوروبا، واستقبلت هي الأخرى طلابًا من جامعات باريس وبولونيا وبادو وغيرها، فضلًا عن أكسفورد. ولقد ساهم هذا التبادل في نقل ثقافات مختلفة بين هذه الجامعات، فانتشرت العادات والأعراف الجامعية بسرعة كبيرة ودون ترتيب، وحصل الطلاب على شهادات مختلفة من جامعات مختلفة.

مهَّد التعليم الجامعي الطريق للتقدم الاجتماعي، ومنح خريجيه فرصة لنيل الحظوة والترقي، وعمل على إذابة الفوارق بين الطبقات، فأصبح بإمكان خريج الجامعة أن يشغل مناصب إدارية وكنسية من خلال تعليمه فقط، دون النظر إلى خلفيته الأرستقراطية أو الملكية، كما ساعد على تكوين شبكة قوية من العلاقات الاجتماعية بين الطلاب من مختلف المناطق الذين اجتمعوا لهدف واحد وهو الدراسة والتعلم.

احتلت الجامعة قدرًا كبيرًا من الأهمية في العصور الوسطى، ومكانة مساوية لنظائرها من الجامعات الأخرى آنذاك، صحيح أن الجامعة شهدت في فترات محددة نوعًا من البطء في تطورها، ولكنها سرعان ما عادت وبقوة وعملت على تدعيم مركزها، لقد كانت الجامعة محط أنظار العديد من الطلاب وخاصة في أواخر العصور الوسطى، وأصبحت ذائعة الصيت، وهو الأساس الذي استندت إليه الجامعة الآن في عراقتها واعتزازها بالماضي.

خاتمة

خلاصة القول، مرت جامعة كمبريدج بثلاث مراحل أثناء نشأتها حتى تبلورت وأخذت مكانها اللائق بين جامعات العصر الوسيط، جاءت المرحلة الأولى في القرن الثالث عشر وهي مرحلة النشأة والتأسيس، وشهدت هذه المرحلة وضع اللبنات الأولى في بناء الجامعة ماديًا وبشريًا؛ أي بناء أماكن التعليم والدراسة، وبناء هيكلها التدريسي والإداري. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة تطور الجامعة في القرن الرابع عشر، وشهدت تأسيس كليات الجامعة التي بلغ عددها اثني عشر كلية وقاعة بنهاية القرن الخامس عشر، ووجود هيكل إداري وتنظيمي قوي للجامعة، مع وجود التشريعات والقوانين التي كانت بمثابة الإطار الحاكم لهذه المؤسسة. أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي مرحلة النضج والتي بلغتها الجامعة في القرن الخامس عشر، ففيها حصلت الجامعة على استقلالها الكنسي والأسقفي، كما شاركت بفاعلية في أحداث المجتمع المختلفة، كحرب المائة عام وتنمية الشعور القومي للمواطنين، والانشقاق الكبير للكنيسة الغربية، فضلًا عن إسهاماتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الإنجليزي.

احتلت الجامعة قدرًا كبيرًا من الأهمية في العصور الوسطى، وهو الأساس الذي استندت عليه الجامعة الحديثة في عراقتها واعتزازها بالماضي، لقد كانت الجامعة محط أنظار العديد من الطلاب وخاصة في أواخر العصور الوسطى، فأصبحت ذات سمعة كبيرة مساوية لأي جامعة أوروبية آنذاك، كما درَّست مختلف أنواع المعرفة والعلوم المعروفة وقتئذ.